عالم النمل

كتاب ألفه موريس ماترلينك شاعر بلجيكى ألف بالفرنسية ونال جائزة نوبل ١٩١١ تقول الموسوعة العربية عن هذا الكتاب أنه من أبدع كتبه.

ترجم هذا الكتاب الأستاذ شفيق اسعد فريد.

والكتاب من عشرة فصول. يقول المؤلف فى مطلع الفصل الأول:

(إن النمل حشرات شوكية غشائية الأجنحة، مؤهلة- لحفر الأرض، اجتماعية. وقد بلغ عدد الأنواع التى أمكن وصفها حتى الآن ستة آلاف نوع، لكل منها عاداته الخاصة وصفاته التفردية). وإن كان هذا العدد أكبر كثيرا فى العصور الجيولوجية الأولى.

ونقف هنيهة عند كلمة (اجتماعية) فالمؤلف يقطع بأن النمل العادى والنمل الأبيض حشرات اجتماعية قبل كل شىء. أما النمل فيعتبر اجتماعيا بصفة استثنائية فقط على عكس الاعتقاد العام، وواقع الأمر، إن العلم يعرف عشرة آلاف نوع من النحل منها خمسمائة نوع فقط تعيش فى مجتمعات، بينما لا يوجد نوع واحد منعزل من النمل أو النمل الأبيض.

وعلى العكس من النمل الأبيض الذى يقتصر وجوده على البلاد الحادة، غزا النمل جميع الجهات المأهولة تقريبا فى العالم، باستثناء أقصى الشمال، والمناطق شديدة الارتفاع..

وقد أمكن فحص أحد عشر أحد عشر نوعا من النمل كانت موجودة فى كهرمان البلطيق. وفحص أيضا سبعمائة وأحد عشر نوعا منه وجدت فى كهرمان صقلية فى العصر المتوسط. وشبيه بالإنسان فى تطوره، النمل فى مراحل نموه.

ويقول «هويلر»: (انتقل النمل تحت ضغط الظروف المختلفة، من الحياة الترابية- التى كانت طريقة معيشته الأصلية- إلى الحياة الشجرية، ثم انتقل من النظام الحشرى الذى تميز فيه بالافتراس، وكان يغذى نفسه فيه بلحم الحشرات الأخرى، إلى نظام السعى وراء القوت، وأخيرا إلى المرحلة الزراعية والنباتية.

ومن العجيب أن هذا الارتقاء، شبيه بارتقاء الإنسان الذى نشأ صيادا أول الأمر، ثم راعيا، فمدافعا وأخيرا عاملا.. وليس من شك فى أن هذه المصادفات تدعو إلى الغرابة.

ويتكون سكان عش النمل من الملكات، وهى الأناث الملقحة التى تعيش فترة الحمل إلى أثنى عشر عاما. ولا توجد فى عالم النمل ملكة أو أم واحدة.

وهنا تواجهنا مشكلة كبرى هى: من الذى يحكم العش؟

يقول المؤلف: من الجائز أن نتمكن فى أحد الأيام من أن نكتشف فى تل النمل علاقات اكترونية- مغناطيسية، أو اثيرية أو فيزيقية كاملة معقدة لا نعرف عنها أى شىء فى الوقت الحاضر.

وللنمل فى الهجرة، أسلوب شيق طريف، فقد يتفق أن نكتشف نملة، فى تجوالها، عش نمل مهجور ترى أنه أكثر ملاءمة من العش الحالى «فتستخدم قرن استشعارها فى الطرق لإبلاغ أختين أو ثلاث من أخواتها بالاكتشاف الذى وقعت عليه، وتجذبهما فيما يشبه العنف لتطلعهما على العش، وتبين مزاياه، وتسمح الأختان لنفسيهما بالاقتناع، بما تقوله أختهما، وتقومان بدورهما فى إقناع غيرهما بمزايا العش الجديد، وهكذا تبدأ حركة هجرة شاملة إلى هذا العش. وتكون الخطوة التالية نقل المحارين الكسالى، وتتولى كل نملة من الرقيق نقل نملة من السادة إلى المنزل الجديد. وتضعها عند مدخله حيث يستقبلها عدد آخر من النمل الرقيق الذى يمضى بها إلى الجزء الأسفل من العش، وبعد ذلك ينهمك النمل الرقيق فى نقل البويضات واليرقات والخوريات.

وفى الفصل الثانى (أسرار عش النمل) يقول المؤلف:

دلت الدراسات والملاحظات على أن النملة هى، بلا منازع، أنبل وأسخى وأشجع وأخلص، وأكثر مخلوقات هذه الدنيا ايثارا للغير.

ويرجع ذلك إلى عضو وهبتها الطبيعة إياه.. ذلك هو كيس غير عادى يوجد عند مدخل بطن النملة، ويمكننا أن نطلق عليه «الكيس الاجتماعى» أو «المحصول». ويوضح هذا الكيس الناحية النفسية والخلفية فى حياة النملة كما يوضح الجزء الأكبر من مستقبل حياتها، ولذلك يجب أن نتأمله بعناية قبل أن نمضى فى حديثنا. ليس هذا الكيس معدة، فهو لا يحتوى على غدد هضمية، كما أن الطعام المكدس بداخله يحفظ صحيحا ولما كان غذاء النملة، التى تملك فكا أسفل قويا

يمكنها من اقتناص فريستها أو عدوها، وتمزيقه، وتقطيع أوصاله، وتقسيمه، وشل حركته، ولكنها لا تملك أسنان تستطيع المضغ بها، نقول لما كان غذاء النملة يكاد يكون سائلا تماما ويشبه إلى حد ما ماء سكريا- فإن الكيس المشار إليه يشبه إبريقا للتجميع، تحتفظ النملة به خصيصا لفائدة بنى جنسها.

ومن العجيب أن هذا الكيس مطاط بشكل مدهش، ويشغل أربعة أخماس مساحة المعدة، وهو يدفع جميع الأعضاء الأخرى جانبا، كمأنه قابل للتمدد إلى درجة تجعله يتخذ شكل الأبريق، أو على الأصح شكل «بنبونة» يبلغ حجمها ثمانى أو عشر مرات حجم المعدة العادية.

تقول الاسطورة: «إن النملة لا تقرض» وهذا صحيح، فإن النملة لا تقرض لأن الأقراض علامة البخل، بينما تقدم النملة كل ما لديها بلا تدبر أو تفكير، كما أنها لا تطالب بالوفاء أبدا.. والنملة لا تملك شيئا حتى ولا محتويات جسمها.

وهى قلما تفكر فى الأكل.. فعلام تعيش إذن.. لعل تعيش على الجو أو الكهرباء المنتشرة أو الابخرة أو الشذى.. فإنك تستطيع أن تحرم النملة من الطعام أسابيع.. ومع ذلك فإنها لا تموت مادمت تهيىء لها قليلا من الندى.. إن نقطة من الندى تكفى لملء معدة النملة.. ولذلك فإن كل ما تسعى دائما لتكديسه، فى الكيس الذى أشرنا إليه، إنما يستهدف خير المحصول الجماعى.. أى الحقيبة الشعبية..إنها تكدسه للبويضات واليرقات والحوريات ورفيقاتها بل وأعدائها أيضا. وهكذا ترى أنها ليست أكثر من عضو للإحسان.. إنها عاملة لا تكل، متقشفة، عفيفة، عذراء وكل متعتها هى أن تقدم لكل من يرضى جميع ثمار عملها.

ومن طرائف النمل أنه يبلغ من طيبة القلب، درجة تجعله، حتى عندما يحتدم أوار القتال. لا يستطيع مقاومة تضرعات العدو الجائع ولهذا يقدم له حاجته من الطعام قبل استئناف القتال!!!

وسلاح النمل يتمثل فى الفك الأسفل ويشكل هذا الفك نوعا من الكماشة أو القاطع، وبعضه قصير وملتو كملقط طبيب الأسنان، وبعضه الآخر طويل كخطاف الحصاد وينتهى أحيانا بسن مدبب يستطيع اختراق جمجمة العدو بمنتهى السهولة.

وتختلف عادات النمل فى الحرب اختلافا كبيرا كاختلاف أجسامه وأسلحته، إلا أن العجيب أن كل نوع من أنواع الحروب التى يمارسها البشر موجود فى دنيا النمل: الحروب المكشوفة،

والهجوم الشامل، والتعبئة العامة وحرب الخنادق، والمفاجآت، وخطط التسلل وحرب الإبادة الشاملة والحصار، والاقتحام، والهجوم، والتقهقر، والانسحاب الاستراتيجى، وأحيانا النزاع بين الحلفاء، وهلم جرا.

ومع ما يتمتع النمل به من حسن التنظيم العسكرى، والقدرة على القتال إلا أن هذه الحشرة البسيطة تحترم ملكية الغير، ولا تسىء استعمال قوتها وتتجنب كل أسباب النزاع ومناسباته، وتركز اهتمامها كله فى شئون العش الذى تعيش فيه.

ويصف «هيوبرى» معركة من معارك النمل:

لابد أن يرسل الجيش قوات قليلة لاستكشاف عش العدو الذى يريد نهبه، يرسل كتائب صغيرة لمحاصرة هدفه تدريجيا. ولكن ما إن يشر الفريق الآخر بالخطر الذى يتهدده حتى يتجمهر حول المداخل، ويسدها على قدر الإمكان بحبات من الرمل. وهنا تصدر إشارة خفية لا علم لنا بمصدرها، فيندفع الغزاة فى هجوم شامل. ويحاول المدافعون المقاومة، إلا أنه لما كان المهاجمون يفوقونهم عددا، فإن المدافعين يضطرون إلى دخول العش يائسين، ولكنهم سرعان ما يعودون وقد حملوا حورياتهم بعد أن قرروا إنقاذها بأى ثمن. ولكن الغزاة ينتزعون الحوريات من المدافعين عنوة. ويضعونها مؤقتا بالقرب من مدخل العش ويسمحون للأمهات الملقحات وغيرهن من العاملات غير المشتركات فى القتال بالمرور بغير أن يتعرضوا لهن بأذى.

وبعد ذلك ينقل الغزاة حوريات العدو إلى مستعمراتهم الخاصة ثم تمضى ثلاثة أيام طويلة وطوابير الغزاة تروح إلى العش الذى سقط، وتجىء إلى عشها حاملة ما تستطيع أن تنهبه من مؤن وطعام، إلى أن تتم تصفية عش العدو المهزوم.

وفى الفصل الثامن يتحدث المؤلف عن النمل الزراعى ومن أنواعه النمل صانع الحدائق الهوائية ويبنى هذا النمل أعشاشه المستديرة كالكرة فوق مواضع اتصال أغصان الأشجار بجذوعها، والعجيب فى الأمر أن النمل يبذر فى أعشاشه بذور النباتات الهوائية، وهى نباتات صغيرة فطرية ولكن النمل لا يزرع هذه البذور طمعا فى زهورها وخضرتها وإنما لتقوية عشه بواسطة الشبكة الليفية لهذه الفطريات المزعومة وبذلك يأمن النمل غوائل الشتاء قارس البرد غزير الأمطار والصيف المحرق.

وهناك النمل النساج (ويفر). وهذا النمل يعيش فى المناطق الحارة بآسيا وافريقيا واستراليا والهند الصينية حيث يلقى فى البلاد الأخيرة احتراما كبيرا من الأهالى الذين يحمونه لأنه يدافع عن نباتاتهم ضد هجمات مختلف أنواع الطفيليات.

أما النمل الصحراوى الذى يقضى معظم حياته فى نقل حبات الرمل فمزود برءوس هائلة على شكل معول، أو ملعقة أو قبة.

ومن الطريف قول المؤلف (يكفى أن نرسم فوق رقعة من الورق أشكال وجوه مختلف أنواع النمل العامل أو المحارب حتى تتجمع لدينا مجموعة من الأقنعة لا تتوفر فى أية حفلة تنكرية تقام فى نيس أو فنيس أو فى أى مكان آخر.

وهناالنمل الطفيلى وقد أثبتت الملاحظات والاحصاءات أن عدد أجناس النمل الطفيلى التى عرفت حتى الآن ألفا جنس.

ولعل سذاجة النمل، وكرمه الذى يغلب عليه صفة الحماقة وترحيبه بكل قادم جديد هو الذى يطمع الأجناس الطفيلية فيه.

ولهذا النوع من النمل قصص وعجائب وطرائف فصلها الكتاب.

وهناك أيضا جنس من النمل الطفيلى البورجوازى وقصصه فى الكتاب ممتعة.

وهكذا تمضى الفصول العشرة فى هذاالكتاب الرائع حقا وقد جعل، له، المؤلف خاتمة حافلة بالطرائف.

فأولا وقبل كل شىء إن صحة النملة ونشاطها لا يتعرضان للمرض أو التدهور، بل إن النملة التى تقطع رأسها تعيش عشرين يوما وتظل واقفة على أقدامها حتى النهاية.

والنملة تتجاهل قوانين الجاذبية ولهذا تتسلق، وتهبط السطوح العمودية كما لو كانت تسير فوق سطوح أفقية مستوية. وهى لا تتعرض لما تتعرض له من أوبئة وأمراض، بل إننا لا نعرف حتى متى تموت لأن عودتها إلى الحياة سهلة لا تخطر على البال كما أثبتت التجارب التى أجرتها الآنسة فيلد، إذا عادت أربع نملات من سبع إلى الحياة بعد أن أبقيت سبعة أيام تحت الماء.

والنملة تتمتع بالسعادة فى منزلها لأنه ليس، فيه، ما تخشاه، إن منزل النملة حافل بالسلام والوفرة والإخاء التام.

يقول المؤلف (السعادة إيجابية عند النملة، ويبدو أنها الكائن الوحيد فى العالم الذى يتمتع بهذه السعادة الايجابية، فمن الناحيتين البدنية والعضوية، فإن النملة لا تشعر بأية سعادة إلا إذا هيأت السعادة لمن حولها وهى لا تشعر بأية مباهج سوى ما يهيؤه لها أداء الواجب، وهو أمر ندر أن يتوفر فى الإنسان.

ومع هذا هناك علامة استفهام ستظل معلقة. فالمؤلف يسأل فى الفقرة الأخيرة من الكتاب: (ما هى الغاية من حياة النمل وقوته؟)

سؤال كما يقول يحير عقل الإنسان..

وأنا لا أرى حيرة.. إن عظمة الخلق فى النملة أكبر منها فى أشياء كبيرة. لقد تعلمت أشياء كثيرة من هذا الكتاب أى من النمل، لقد، مر، بنا ما جبلت عليه النملة من ايثار وسخاء وعطاء بلا حدود ثم قيم العمل والتضحية والصبر، وأخلاقيات الحرب.. ألا يكفى هذا سببا لوجود النمل..

إنى سيدة أتضامن مع السيدات فى إبعاد النمل عن البيت ولكنى غدوت بعد قراءة هذا الكتاب أحترمه.. من بعيد لبعيد.. ليكن.